عصير الكتب
يا آدمُ اسكُن
مع النبىّ
على أحمد

مع النبي

يَا ءَادَمُ اسْكُنْ

علي أحمد

جميع الحقوق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

http://book-juice.com

يَا ءَادَمُ اسْكُنْ

المؤلف : علي أحمد

نشر في : يونيو 2017

تصميم غلاف: محمد الحسيني

تنسيق داخلى : عصير الكتب للنشر الالكتروني

إهداء

إلى صفوف المسلمين في غزوة بدر الكبرى..

إلى الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه..

إلى الرعيل الأول من جيل الصحابة..

لَكَم كنت أتمنى أن أكون بجانبكم؛ في الصفوف الأولى للدفاع عن كلمة الحق والهدى..

لَكَم أشتاق..

(نعم جئت هنا متأخرًا جدًّا ولكن ليس لي حيلة..

ولو كان قدوم المرء حين يشاء لكنت رجوت تعجيله..)

عبدالعزيز جويدة

(١)

ما معنى أن يكون إسماعيل وإبراهيم – عليهما السلام – من جدوده – صلى الله عليه وسلم–؟! ليس الأمر محض صدفة ، ليس هناك من صدفة بالأساس ، ما معنى أن يكون نوح صاحب سفينة الإنقاذ جده أيضًا ؟؟ ، هل في ذلك درس لابد وأن نفهمه ونستوعبه ؟ ، لماذا لا نربط بين قصة الخلق الأولى – قصة آدم – عليه السلام -- وقصة سيد ولد آدم – صلى الله عليه وسلم – ؟؟ ، لماذا لا نتعلّم إذًا ، إن ذكر النسب بالأسماء شئ جميل ، وربما ما وراء الأسماء شئ أجمل..

ولذلك قررت أن أغوص قليلًا في بحر نسبه ، من أوله وليس من آخره ، من بداية الخلق ، من آدم – عليه السلام – ، مرورًا بنوح وإبراهيم – عليهما السلام – ، وصولًا في الأخير إلى عام الفيل ، حيث حط الرحال

في مكة ، مربط فرس الزمكان..

الحياة إذًا ، الكلمة الصعبة التي تم إختزالها في ستة أحرف ، أقصر مما نتخيّل ، أحقر مما نعرف ، أجمل بأبينا وقصته ، آدم – عليه السلام – وحوّاء الأم..

إذًا لِما تنفر الحياة من آدم ، ولماذا كان الندم يلازمه في أشد فترات حياته ، فترة الهبوط وما بعدها ، إن أصوات الكون مُسخّرة له ، فلماذا كان ينفر منها ؟!

لماذا وُجِد الحزن؟ لماذا وُجِدت الأسئلة؟ كيف كان تفكير آدم ، لماذا ؟ ، هل منكم من رأى نظرته ؟ ، كانت للمستقبل أكثر أم للماضي ؟ ، ما هو مفهومه عن الموت ؟ ، هل يخاف منه ، يحبه ، يهابه ، أم...

هل تعرف أول كلمة قالها ، لحظة أول دمعة ، ربما تعرف أولى لحظات الندم

، وكذلك أنا ، لكننا لا نعرف الكثير عن آدم ، أبينا ، الأب الأول ، هل نحن تائهين لأننا لا نعرف الكثير عنه ؟؟

يجوز أن هناك من هو في دروب التيه يسير أكثر منّا ، وهو الذي لا يعترف أن له أصل أصلًا..!

لنفهم أين نحن ، ولماذا ، لابد وأن نعترف مبدأيًا بأن لنا أب ، لنتأثّر به ونتعلّم منه كيف يكون السير في هذه الحياة ، لنرجع إذًا بالزمكان إلى تجربته الاولى ، وهي تجربتنا جميعًا بالمناسبة ، لنضعها نُصب أعيننا ، لنتعلّم ، نفهم ، نعمل ، لنتيقّن..

(٢)

كان الأب الأول يبحث عن شئ ما ، شئ لا يجده ، البحث نفسه والحيرة نفسها إحساسان جديدان عليه ، ربما يبحث عن حوّاء لتحتويه كعادتها ، ليسكن إليها ، لكنها هي الأخرى تبحث عن شئ ما ، ربما هو نفس الشئ ، لكن لمجهوليته فإنهما بالكاد يكتشفان طرق جديدة للبحث ، طرق بدائية ما زالت في طوْرها الأول ، يعتري آدم إحساس ليس بالجيد ، لأول مرة يشعر به ، يكتشفه ، يغتم وجهه لأهله ، فقد كان إحساسًا لاذعًا ، مريرًا ، ربما فهم أن الشئ الذي يبحث عنه غير ملموس ، كالذي شعر به بالضبط ، ولأنّه تعلّم الأسماء كلّها ، فقد كان يعلم أنه الندم ، أولى خطوات التوبة ، سيُعلّمها حوّاء بكل تأكيد ، لكن بعد أن يجد الخطوة الثانية للتوبة ؛ ما يعقب الندم ، لابد وأن هناك ما يعقبه ، طالما هذا الذي يعتريه لا يذهب ولا يكاد يمل من تأنيبه..

جلس الأب الأول على الأرض موضع خلافته ، جلس يُفكّر ويتذكّر ، علّه يجد الخطوة الثانية ، علّه يجد الراحة والسعادة ، يجد الإستقرار والمتاع إلى أن يأتي حينه ، بدأت ذاكرته في الإنتعاش ، لأول مرّة ستعمل الذاكرة ، وتعيد على الأب الأول تجربته لكي يتعلّم منها الكثير ، لكي لا ينسى منها شيئًا ، ولكي لا ننسى نحن الآخرون ، وكانت البداية هناك ، حين ما قال الله لملائكته { إني جاعل في الأرض خليفة } (البقرة : ٣٠)..

****

قال الرب الأعظم وقوله الحق للملائكة ، وعند ما يقول الله للملائكة فلابد وأن هناك رسالة ، ستكون يومًا ما لشخص بعينه ، ربما أنا وربما أنت ، الرسالة لشخص ما ، مخلوق ما ، عبر مخلوق نوراني ، خُلِق من نور ، سُمّي بالمَلك ، وأصل الملأك في اللغة العربية هي الرسالة ، فالملائكة دومًا وسطاء خير ، مُبَشِّرين بشئ ما ، لا يأتون إلّا بالخير والعبرة ، وما الخير والعبرة إلا رسالات السماء ، وقالها للملائكة ، إني جاعل في الأرض ، يُقال أن الأرض كان بها مخلوقات قبل البشر تُفسِد فيها ، تسفك الدماء ، ويُقال أيضًا أنه لم يكن هناك شئ على الأرض قبل الإنسان – الخليفة أقصد – ، إني جاعل في الأرض ، فاعل في الأرض ، سأزرع في الأرض إنسانًا ، يطرح خلفاءًا آخرون ، يعشقون اللون الأخضر ؛ لون النضرة والبهاء ، ويكرهون حُمْرة الدم مع قدرتهم على فعله ، هؤلاء هم الخلفاء..

خليفة ؛ جاعل وخالق وفاعل في الأرض خليفة ، ساكنًا بها وباحثًا عن

السعادة والراحة ، ويعمّرها خلفًا عن خلف ، ليس منكم يا ملائكتي ، ليس من الملائكة !! ، إذًا فهو مخلوق آخر ، بمواصفات أخرى ، لا تدري الملائكة كُنه الخليفة ، وربما تسائلت فيما بينها ، أو سألت ربها إستزادة في العلم { أتجعل فيها من يُفسِد فيها ويسفك الدماء ونحن نُسبّح بحمدك ونُقدّس لك }(البقرة : ٣٠).. ، لكن كما قلت ، ما دامت الملائكة هي المذكورة إذًا فهناك رسالة مهمة ، ربما فهمها حفيد الخليفة الأعظم ، سيد وَلَد آدم ولا فخر..

(٣)

وكانت تلك الليلة ، كان القمر مُحاقًا ، والليلة حالكة السواد ، ومن قلب السواد يخرج الضوء الذي يُخرِج العالم من الظلمات ، من ظلمات الجهل ، إلى نور الحياة ، ضياء المعرفة ، جلال العلم ، جمال الأدب ، كانت تلك الليلة هي البداية الفعلية للتطبيق العملي لتجربة آدم ، حينما قال الله { إني أعلم ما لا تعلمون } (البقرة : ٣٠)..

في تلك الليلة ، كان جبريل – عليه السلام – قد أنهى مهمته الأولى مع سيد ولد آدم ، وتركه يرتجف ، وعقله لا يكاد يُصدِّق ما حدث ، هذا الكائن الضخم المهيب ، يقترب منه ويدنو ، يقولها على مسمع منه فقط ، في ذلك الغار ، الذي ولا بد أن نخرج منه ، تركنا هناك رسول الله وهرول نحو خديجة يلتمس الأمان ، ليسكن إليها ، كما كان آدم يفعل مع حوّاء ، يسكن إليها ، يلتمس الأمان في عينيها ، لكنه تركنا هناك في الغار ، غير

مُصدّقين ما حدث ، هل قال ذلك الكائن – اقرأ – ، هل قالها ؟ ، ولماذا قالها ؟ ، ونحن أمة تتفشّى فيها الأميّة والجهل ، تتوقّف عقولنا عن مُجاراة الحكمة ، ربما نريد لأنفسنا هرولة كهرولة النبي ، ركضًا نحو الأمان ، عَدْوًا نحو الفهم ، قوة عند التطبيق ، علمًا ومعرفة وأدبًا ، كان جبريل – عليه السلام – يصعد وقد أتمّ مهمته ، وبقيت مهمة النبي محمد ، الخليفة الأعظم ، أن يفهم كلمة اقرأ ، هو أُمّيْ ، لا يقرأ ولا يكتب ، فلماذا تكرّرت ثلاث مرّات ، هل كان ذلك الكائن لا يسمعه جيدًا وهو يقول له – ما أنا بقارئ – ، كان يسمعه جيدًا بالطبع ، ربما في الأمر سر لا يعرفه..

تدثّر النبي وقتها ، كان العرق يغزو وجهه ، والبرد لا يكاد يخلو جسده منه ، وكانت خديجة..

عندما أتصوّر ذلك المشهد بالذات أتوقّف ، وقفة جلال وهيبة ، وقفة إحترام عظيمة لهذه المرأة ، لو كنت أنت مكانها ، ماذا كنت لتقول ؟ ، ماذا

ستفعل ؟ وأنت ترى حبيبك يرتعد ، يقص عليك قصة لو سمعتها من شخص آخر لكانت اعترتك الدهشة ، لكنه الصادق الأمين ، حبيبك !! ، يقول { لقد خشيت على نفسي } ، ستقف وعيناك مُتّسعتان ، يعتمل بك إحساس خليط ما بين الغضب والدهشة ، لا وألف لا يا رسول الله ، كيف تخشى على نفسك وأنت أنت !! ، ستقف عند هذه الجملة ، وأنت أنت ! ، { لقد خشيت على نفسي يا خديجة }.. ، {كلا والله ، والله لا يخزيك الله أبدًا } ، ربما قالتها بقوّة ، وربما قالتها بحنو وعطف ومحبّة ، وربما خليط بينهما ، تفوق محبتنا له – صلى الله عليه وسلّم – ، لكنها قالتها ، وتسرّب الأمان إلى قلب محمد ، لأنه محمد ولأنها خديجة..

{ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر..}..

كلمات خديجة – رضي الله عنها – كانت قوية ، سليمة ، إنك تفعل كل

ما هو صحيح ، ومن غير المنطقي أن يقابلك الله بما يؤذيك ، إنه يحبك ، ولن يخزيك ، أعتقد أنه وبعد تلك الكلمات العظيمة ، في هذا الموقف العظيم ، لم يعد يخشى محمد على نفسه ، لقد هدأ واستكان واستراح ، هل ضمّ خديجة ؟ ، إنه يسكن إليها !! ، إنها سكنه ومُستراحه ، إنها خديجة..

لم تنتظر خديجة ، لم تنتظر وقْع الكلمات الإيجابي على زوجها فقط ، لربما كان الأمر عظيمًا ويحتاج لشخص لديه من العلم ، علم !! ، مرة أخرى يقابلنا العلم ، وكان اسمه ورقة ، ورقة بن نوفل ، قارئ في الكتب ، باحث عن الحق في زمن كان قد اقترب الحق فيه على الإندثار والإختفاء ، إنه ورقة ، هلم بنا فلنذهب إليه ، لربما يُساعدنا ، كانت الخطوة الأولى في معرفة الله ، وفي معرفة الحق ، في تأهيل الخليفة للإستخلاف والتعمير في الأرض ، { وعلّم آدم الأسماء كلها }(البقرة : ٣١)..

(٤)

وكان آدم – عليه السلام – ينظر للأرض ، يتأمّلها ويكتشف ما بها وما تعلّمه من ربه ، ينادي على حوّاء ، هذا جبل ، وذاك وادي ، وتلك رمال ، وهذا هو البحر ، تركض حوّاء يملأها العطش ، تُحدّث نفسها آهٍ لو كُنّا في الجنّة الآن ، لَمَا ركضت نحو المياه ، تملأ كفّيها بالماء ، ترتشف الرشفة الأولى ومن ثَمّ تلفظها ، إنه مالح ، ربما يضحك آدم من قلب الوجع والندم الذي يعتريه في هذه اللحظة ، البحر يا حوّاء طعم مياهه مالح ، أمّا النهر فعذب صالح للشراب ، يفهم آدم لحظتها أن العلم الذي تعلّمه ليس مُنتهى الحكمة ، وإنّما بداية طريق الإستخلاف ، سيأتي من بعده قرونًا وحضارات أخرى ، ربما نحن ، وننسى أو نتناسى أن العلم ما هو إلا البداية ، أن التجربة ليست هي الشئ المُقدّس ، وأن النتيجة ليست إلهًا نخضع له ، وأن العالم ليس إستهلاكيًا بالدرجة التي يُجعَل من الإستهلاك إلهًا خلقناه

بأيدينا ، ربما ننسى ! ، لكنها ستبقى الحقيقة التي اكتشفها آدم ، الحقيقة التي يتعامى البعض عنها ، سهوًا أو غرقًا في بحر الماديات ، يعلم آدم الخليفة أن البحر بحر والنهر نهر ، والتجربة تُثْبِت أيهما صالح للشرب ، وبعد التجربة تأتي المعرفة ، شئ أسْمى من العلم ، ولكنه أيضًا ليس إلّا وسيلة أخرى ، المعرفة التي تنقص آدم ليعرف ما هي الخطوة الثانية من خطوات التوبة بعد الندم ، وتنقصنا أيضًا ، من يوم خُلِق آدم إلى يومنا ونحن نتعلّم ؛ نكتشف ؛ نرتشف من بحر علم الله الذي لا ينفد ، لكنه كتحصيل معلومات لا تنفد وإكتشاف حقائق مُبْهِرة كقطرة مياه في بحر يغشاه الظلام إلّا قليلًا من قليل..

بعضنا اتّخذ العلم إلهًا يُخطِأ ؛ والخطأ من طبيعته ، والبعض الآخر اتّخذه غاية ، لأنه لا يصل لنهايته بأي حال ، ومن أخبركم أن علينا بلوغ نهاية العلم ؟! ، أظن أنه ما علينا إلّا إلتماس درب المعرفة الموصِّل لحافة الأدب مع الله ،

العلم محدود بالحواس ؛ بالماديات ، العلم ما هو إلّا وسيلة ، وسيلة عظيمة نعم ؛ لكنها ليست مُقدّسة ! ، وسيلة نحو المعرفة ، نحو شئ أسْمى وأروع وأعظم ، نحو العودة إلى الجنة ، نحو العيش بالجنة ، نحو الخطوة الثانية بعد الندم ، علِم آدم – عليه السلام – أن ما علّمه إياه ربه لم يكن سوى خطوة أولى في معرفة باقي الخطوات ، اقترب آدم ، ذنبه الذي يُنغِّص عليه معيشته ما هو إلّا تجربة عليه التعلُّم منها ، وتعليم أبناؤه أيضًا ، أن الأمر يتعدّى حدود العلم ؛ يتخطّاه نحو حدود أكثر إتّساقًا مع الكون ، إنها حدود أول آية نزلت من القرآن الكريم ، { إقرأ }(العلق : ١)..

(٥)

وكانت اقرأ أول كلمة ، البداية ، وكان ورقة أول من ذهب إليه النبي ، وكانت عائشة هي من تروي ذلك المشهد ، تقول عائشة – رضي الله عنها – (فرجع النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى خديجة يرجف فؤاده ، فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل).. لا ترضى خديجة بتأثير كلماتها اللحظي ، كان لابد من شئ يقطع الشك باليقين ، شئ عملي متلحف بالعلم ، ورقة ! (وكان رجلًا تنصّر يقرأ الإنجيل بالعربية).. يقرأ ! ، بداية العلم ، تحصيل معلومات ؛ للوصول إلى الحقيقة ، لا يهم إن كان نصرانيًا أو يهوديًا ، المهم أنه يبحث عن الحق (فقال ورقة ماذا ترى ؟ ، فأخبره).. أخبره النبي عن تعبّده ؛ خلوته ؛ تأمّله ؛ عن جمال الكون وجلال خالقه ؛ عن الرجفة التي اعترته ؛ عن ذلك الكائن – جبريل – ؛ عن اقرأ..

اقرأ التي كانت في البداية ؛ وفِهْمُها الذي نفهمه – نحن – أنه الإقتصار

على قراءة الكتب والعكوف على حفظها وترديدها ، لكن ورقة كان يفهم ، ومن قبله النبي محمد ، عندما اختلى بنفسه في الغار يتعبّد ، هل تفهمون معنى يتعبّد ؟! ، إنه يقرأ لكن بطريقة أخرى غير التي نعهدها ، غير قراءة ورقة للكتب وتركه قراءة الناتجة عن قراءة الكتب أو الموصّلة إليها ، أيًا كان فهي قراءة مهمة ؛ مُكمّلة ، كانت قراءته – صلى الله عليه وسلم – للكون من حوله ؛ للنجوم والجبال ؛ للظلام والحُفَر ؛ للنهار والضوء ؛ للقمر والإنارة ، كانت نظرته تأملًا ؛ تدبرًا ، خطوة أولى نحو الحقيقة ، عيّنة من الحق ، كان الكون كتابًا مفتوحًا والقراءة تدبّرًا موجودًا مُسْبَقًا ، لذلك كانت اقرأ ليست غريبة ، في بادئ الأمر نعم ؛ لضخامة الأمر وغرابته ، الدهشة والرجفة التي اعترت النبي هي التي أخّرت القراءة قليلًا ، قراءة الموقف الغريب ، أخّرته قليلًا ، حتى قالت خديجة كلماتها ، وأخبره ورقة إكمالًا للأمر ، ليكملها ورقة بعلم القراءة في الكتب (هذا الناموس الذي

أنزل الله على موسى).. إنه الناموس ؛ إنه الحق ؛ إنها الرسالة ؛ وإنك أنت الخليفة..

(ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك ، قلت : أومخرجيّ هم ؟ ، قال : نعم ، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عُوديَ ولئن أدركني يومك لأنصرك نصرًا مؤزّرًا ، ثم كان أول ما نزل بعد اقرأ { ن والقلم وما يسطرون } { يا أيها المدثر . قم فأنذر } { والضحى . والليل إذا سجى } . (تفسير الطبري وصحيح البخاري ٣٢١٢)..

ربما لنا وقفة مع سورة الضحى ، ولنا وقفة أخرى مع سؤاله – صلى الله عليه وسلم – (أومخرجي هم ؟).

لكن وقفة أولى هنا مع ورقة ، الذي توفي بعدها بفترة قليلة ، لكنه بتلك الكلمات والمشاعر الصادقة ، نعتقد أنه بلّغه الله منازل الصدّيقين ، والوقفة الأكبر هنا مع النبي ، الذي عرف للتو أنه الخليفة ، وأن الصعاب ستكون

في طريقه نحو الحق وإثباته في أرض ربما تفشّى بها الفساد وسفك الدماء ، لكن الله – سبحانه – قال { إني أعلم ما لا تعلمون }(البقرة : ٣٠)..

وكانت سورة العلق ببدايتها ، ونهايتها { كلّا لا تطعه واسجد واقترب }(العلق :١٩)..

كانت القراءة ، وعدم طاعة الجاهل ، والسجود يليه الإقتراب ، السجود هنا !! ، سجود الخليفة للإقتراب ، للخضوع ، لمعرفة أنه الخليفة ، لملامسة جبهته موضع خلافته ، وكان سجودًا آخر هناك ، عندما قال الله للملائكة { وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم }(البقرة : ٣٤)..

(٦)

سجدت الملائكة والملائكة فقط ، سجود التذلل للعلم المطلق والخضوع لعظمة خلق الله ، إن آدم يعلم الأسماء كلها ، إن آدم علّمه ربه ، إن آدم اليوم في سعادة لا تُوصَف ، إنه آدم..

وذاك إبليس..الذي لم يسجد ، الذي لم يعترف بعلم آدم ، الذي رأى في آدم ضعف ، ورأى في نفسه القوة ، ونسي للحظة أن من جعله يرى في الأصل هو من أمره بالسجود..

****

وكان محمد – صلى الله عليه وسلم – ساجدًا عند الكعبة ، يتعبّد ويدعو ربه ، يسأل ربه التوفيق وأن يعتري الشيطان اليأس ، لكن إبليس لم يكن يعجبه السجود ، وكيف لا وهو أول العاصين وأول المُمْتنعين عن السجود

، وكيف لا وهو الذي صنع مملكته في قريش ، جعلهم ينسون فطرتهم ويعبدون الحجر والنخل ويطوفون وهم لا يفهمون ، نعم لا يفهمون ما الطواف ولماذا ؟! ، إنها عبادات وعادات كان الآباء يفعلونها فقلّدناهم تقليدًا عماهم عن موضع الحقيقة ، تناسوا دين إبراهيم ، وحبّب إبليس لهم اللهو وبغّض إلى قلوبهم البحث عن الله ، قرّب إليهم التجارة والنساء والأموال وكل ما هو لذيذ فانٍ وبعّد ما بينهم وبين الحق والخير والأخلاق الحميدة لا الخبيثة ، وبعد ما صنع مملكته وأصبحت خطواته أكثر ثباتًا في الشر والقُبْح والرذيلة ،كان محمدًا – صلى الله عليه وسلّم – ساجدًا عند الكعبة ، يتعبّد ويدعو ربّه أن يعينه على أن يقبع اليأس في نفس إبليس ، حتى يعلم أن السجود خير من الكبر ، أن الخضوع والتذلل خير من العجب والخيلاء ، أن المعرفة هي طريق الأدب مع الله وليست طريق التناقض وسوء الأدب والنيّة ، الشيطان سلاحه اليأس يُلقيه في قلوب

عذارى الفكر والتفكير ، الذين لم يقرؤوا كما قرأ محمد الكون من حوله عندما نظر من فوق جبل غار حراء فرأى الرذيلة تخطو كالبرق في قلوب بنو آدم ، فكان يكرهها قدْر حبه لهدايتهم ، وكان يومها ساجدًا عند الكعبة ، وإبليس يوسوس في صدر أبو جهل حتى تمكّن منه كما يفعلها دائمًا مع هذا الرجل من باب الكِبْر الذي يتمتّع به إبليس ، فقال أبو جهل < واللات والعزى ، لئن رأيته لأطأن على رقبته ، ولأعفرن وجهه !! > فأتى رسول الله وهو يصلي (ساجدًا كما أسلفنا) – زعم ليطأ رقبته – ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة ، فقال رسول الله { لو دنا مني ، لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا }..

إنها الملائكة التي سجدت ، تدافع عن ابن آدم ، بل سيد ولد آدم ، من عرف حق السجود فسجد..ربما تذكّر إبليس وقتها – وهو لا يزال يتذكّر

– يوم طرده من رحمة ربه ، يوم غلبه كِبْره ، يوم دخل آدم الجنة بسبب أنه الخليفة ، يوم تميّز غيظًا من آدم وزوجته حوّاء ، يومها بدأت القصة..عندما قال الله لآدم { يَٰئادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }..(البقرة : ٣٥).

(٧)

وكما أن الكِبْر هو المصيبة التي تودي بالهلاك ، بل أكبر الآفات وأعظمها ، إذ يخرج منه كُل شئ قبيح ، من بداية الإبتسامة الصفراء التي لا تنم إلا عن غرور ، إلى نهاية حالات القتل والسرقة والزنا والقذف بكل شئ قبيح في وجه كل شئ صالح ، القذف بحربة الشر المسنونة في قلب كل خير يهدف إلى الجمال ، وتشويه معالم صورة الحق في كون الله ، لكن لماذا ؟!!

لماذا يفعل البعض كل هذه الجرائم ؟! ، هل هو خلل عصبي ؟! ، زيادة في الهرمونات الشيطانية مثلًا ؟؟ ، ما هو الباب الذي يدخل الشيطان منه على نفس ابن آدم ؟! ، ليجعله لعبة صلصال بين يديه سهلة المأخذ والتكوين ، هل هو نفس الباب الذي ولج منه آدم ومن يومها ونحن نبحث عنه للعودة ؟؟ ، هل ما زلنا لا نعرف أنه الطمع ، التقرُّب إلى ما لا يصح التقرب إليه ، التفكير في الأمر الشائن الذي لا يرتضيه سوى إبليس ، وقتها وفي كل

وقت وإلى آخر العمر ، ربما عليك أن تعرف يا صديق أن إبليس لا يمَلّ ، سيفعلها حتمًا في كل مرة ، سيناديك لتقترب من الشجرة ، تقترب فقط !! ، ثم يجلس ليشاهدك من بعيد وأنت تأكلك أفكارك قبل أن تأكل من الشجرة..

يا آدم اسكن..اسْكَن النار أي أخمدها ، وما التفكير في شهوة أو الاقتراب منها سوى نار تستعر ، يا آدم اسكن واخمد نارها..

يا آدم اسْكُن..واسْكَن الحرف أي جعله من غير حركة ، حيث وضعه الله وحيث يجب أن يُوضَع..

يا آدم اسكن..وسكن الجوع أي هدّأه ، وسكن الظمأ أي رواه ، وسكن الدار أي أقام فيها ، وسكن في البلاد أي استوطنها ، أي بشر في هذا العالم لا تتعدّى حاجياته الأساسية تلكم الأربعة ؟!..فسكن آدم ، تنعّم وترفّه ، تلك الأشياء التي ما عاد لنا شغل غيرها ، هي أهدافنا وأولوياتنا ،

كانت في يد آدم ، وكان السكون الطبيعي ، دوران الكون في مجراه الطبيعي..

{ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ }..

هنا أمرٌ مختلف ، نهيٌ عن شئ ما ، لم يعتد آدم ذلك ، لكنه الإختبار الأول ، إنها الحكمة الأولى من خلق آدم ، لا تقرب تلك الشجرة..

الشَّجْرُ في اللغة العربية معناه الأمر المختلف ، هناك أمر مختلف إذًا ، هناك غريزة الإختيار ، علّم الله آدم الأسماء كلها ، ثم أمره ونهاه ، وتركه لإختياره ، إمّا أن تستفيد من علمك ، وإمّا أن تُفكّر في أمر ما ، أمر مختلف !! ، ثم يجلس إبليس ليشاهدك من بعيد وأنت تأكلك أفكارك (المختلفة) قبل أن تأكل من الشجرة !!

والشجر نبات يقوم على ساقٍ صلبة ، حيث القاعدة معروفة ، والفطرة

موجودة ، لكن التفرعات هي ما توشك أن تقضي عليك ، هناك الأوراق الزاهية لكنها هشّة ، لا تقربا ، هناك الفروع التي تنطلق في الهواء غير عابئة بالقواعد الصلبة ، إنها تسقط في النهاية وتبقى القاعدة الصلبة ، إذًا لا تقربا.. لا تفكرا في الإقتراب ، كونوا حيثما أرادكم الله أن تكونوا ، أين يا ترى ؟؟ ، في الصفوف الأمامية للإجتهاد الخاطئ والتمسك بالفروع ، أم في الصفوف الأمامية للإجتهاد الصحيح والتمسك بالقاعدة الصلبة ، قاعدة الفطرة السليمة ، قاعدة بدر الكبرى..

(٨)

وأنت تتصفّح اليوتيوب ، في يومٍ ما من أيام قريش العادية حدّ الملل ، أعلى المقاطع مشاهدة هي مقاطع سادة قريش بالطبع ، أو صاحبات الرايات الحُمْر ، أو مجالس الميسر – القمار – والخمر ، حيث المال والتجارة ودار الندوة ، وحيث محظور على محمد وأصحابه الظهور أو التحدّث في أمر أفكارهم الجديدة ، التي تكاد تهدم – أو هكذا ظنوا – تجارة قريش وتنسفها من قواعدها ، تلك الأفكار التي يرتضيها كل عاقل ؛ وتتقبّلها كل نفسٍ سليمة ، حيث يشتهر صاحبها بالصدق والأمانة اللذان ومن الصعب أن تجدهما في زمان طغت المادة فيه على كل شئ ، لكنك كشاب من قريش ؛ مغلوب على أمرك ، لا تسمع إلّا ما يريدون لك أن تسمعه ، ولا تشاهد إلا بعينهم ، ولو فكّرت أو أخذك التفكير في الرجوع إلى فطرتك ، إلى حيث المكان الذي وضعك الله فيه ، ستُعذّب ، وأنت ضعيف لا تقدر

على تحمُّل أذى سادة قريش ، فتجلس على آداة تصفحك ونار الفكر تأكل من عقلك كل يوم جزءا ، كل يوم حدث جديد في قريش ، وأخبار تتناقل في مكة ، لم يعد شئ يستعصى على الفهم ، لكنه الشيطان الذي أرْسى قواعده في مكة ، قواعده الصلبة – أو هكذا ظنوا – كشجرة سابقة الذكر..

اللعبة ليست لعبة الكفر في مواجهة الإيمان فقط ، اللعبة لعبة المال والإلتذاذ بثمرات شجرة ستذبل في يومٍ ما ، لعبة السادة الذين يُعادون الفكر الجديد والذي يُهدِّد مصالحهم الشخصية ، إذًا هي الشجرة التي نُهينا عن الإقتراب منها ؛ يستظلون بظلها ويأكلون من ثمارها المُحرّمة ولا يعبأون بمكانهم الصحيح والذي من المُفترض أنه الصحيح..

تتوقّف آداة عقلك عن التفكير لوهلة ، وعيناك لا تكاد تصدّق ما ترى ، مقطع من مقاطع الفيديو الخطيرة والتي ربما ستُغيّر من مجرى القضية

والمعارك الصامتة الدائرة في أم القرى..

شاهد قبل الحذف..أبا الحكم وأبو سفيان والأخنس بن شريق يستمعون للقرآن سرًّا..

تضغط بسرعة حتى لا يفوتك ذلك المشهد ، لكن للأسف حُذِف الفيديو قبل أن تصل له ، لكن سيرة ابن هشام حفظت لنا ما حدث يومها..

(أن أبا سفيان بن حرب ، ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زُهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – وهو يصلّي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم – ربما قصد بعض الشباب من قريش – لأوقعتم في نفسه شيئًا ، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك ثم تفرّقوا.)..

عندما تسمع تلك القصة وأنت شاب في قريش ، تخاف البطشة من هؤلاء ، لا يسعك إلا أن تضرب كفًّا بكف ، لا يسعك عقلك الذي أرادوه لك ، وربما رأيت الأمر بطريقة مختلفة ، ماذا لو كان محمدًا على الطريق الصحيح وهو الذي ما جرّبنا عليه كذبًا قط ؟!..

لكن أبا جهل لم يكن ليترك الأمر بهذه البساطة ، لم يُرِد أن تُروّج عنه إشاعة أنه يستمع للقرآن ، أبا سفيان لم يكن يهمه الأمر ، فأجاب عندما سُئِل

عندما سئله الأخنس عن ما سمعه.. -- والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها -- ؛ فرد عليه الأخنس وقال -- وأنا والذي حلفت به.--

لكن أبا جهل كانت تهمه أمواله ، سمعته ، ما يُقال عليه ، أعتقِد أنه ظلّ طوال الليل يفكر ، ماذا لو أُشاع عني أني سمعت قرآن محمد ؟! ، هل سأستسلم بهذه السهولة ؟! ، حيث لا سادة ولا عبيد ، حيث أتساوى مع عبدي ! ، حيث لا أموال ولا تجارة ولا إيلاف ولا عقود تمنع عنّا البطش ونهب قوافلنا في الصحراء ، لا..

تاليًا أصدر تصريحًا صحفيًا كي لا يدع مجالًا للشك في نفوس – السفهاء – كما قال..

وحوّل بدهائه وإجتهاده الموضوع ، من قضية ثورة جديدة قادمة ستهدم كل ما هو شائن إلى عصبية قبلية شائنة ، حيث قال

-- تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنّا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ؛ فمن ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدّقه..--

اختار ظل الشجرة للأسف ، اختارها لأنها كانت تُظِلُّه بظلالها ، لا يعلم أن شمس الإسلام قاهرة كل ظل ، لأن الظل ما هو إلا انعكاس للصورة الحقيقيّة ، والحقيقة هو ما يريده الإسلام ، حقيقة المكان الذي وضعك الله فيه..فاختر لنفسك وبإجتهادك ، بإختيارك ، في الصفوف الأمامية هناك في غزوة بدر الكبرى ، إما بجانب أبا جهل ، وإما بجانب رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – ، إما بجانب الطمع في جنةٍ بلا عمل ، وإما بجانب عمل هو عين الجنة ، حيث السكون ، حيث { اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا }..لكن بشرط { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا

مِنَ الظَّالِمِينَ } – البقرة : ٣٥ – كأبا جهل مثلًا !!

(٩)

تحدّث الكثيرون عن نوع الشجرة ، اختلفوا فيها ، قالوا هي البُرّ ، العنب ، التفاح ، السنبلة..

لكن السؤال هنا : أهو من المهم جدًّا أن نعرف ماهية الشجرة ؟!..

أعتقد أن العلماء من شدة حرصهم على ألا يتركوا كبيرة ولا صغيرة في كتاب الله إلا وقد بحثوا عنها وفيها وتوصّلوا إلى شئ ما ، لكن ليس دائمًا كل ما توصّل إليه العلماء من دقة في التفاصيل مفيد بشكل ما ، ربما زيادة في المعلومات ، وربما لشئ آخر لا نعلمه ، لكن الأمر الواضح – بالنسبة لي على الأقل – هو أن ذكر إسم الشجرة لم يكن مفيدًا بالشكل الذي نريده ، وإلّا لماذا لم يذكره الله في كتابه ؟؟!

الأمر أعمق من هذه الإجتهادات المحترمة ، والتي لا يتم التقليل من شأنها

مهما حدث ، إنه حرص على العلم والإستزادة فيه ، لكن المشكلة ليست في معرفة النوع ، المشكلة كلها أن تعرف ماذا تُمثِّل تلك الشجرة في رحلة حياتك ، رحلة إختيارك ، وأيضًا ما معنى الإقتراب ؟؟

****

{ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) }..– الأنعام : ١٥١–١٥٢ –

{ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ }.. – الإسراء : ٣٢ –

{ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) }..– الإسراء : ٣٤ –

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا

تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ }..– النساء : ٤٣ –

****

كلمة قُرْب..

بالقرب منه : بجانبه

بالقرب من : على مسافة قصيرة من

عن قرب : على مسافة قصيرة

القُرْب : الدنو..

****

مما سبق جميعًا ، من الآيات الكريمة التي وضّحت أن القرب كثيرًا ما يكون نحو الخطأ ، ما يكون نحو الشئ المنافي للفطرة ، إذ أن الإنسان دائمًا على الفطرة ، في المكان الذي ارتضاه الله له ، في الصفوف الأمامية للفطرة النقية السليمة ، الخالية من الشوائب ، حيث السكون ، كسكون الكون ، إذ أن حركة الكون في مداره ، حركة الأرض حول نفسها ، حول الشمس ، حركة الطيور نحو رزقها ، حركة النبات نحو مصدر غذائه ، كل ذلك نوع من السكون..

الوحيد الذي له مَلَكَة الإختيار ، هو ابن آدم ، إمّا أن يختار درب السكون ، أو يختار درب الإقتراب والدنو من الشجرة ، على مسافة قصيرة منك ، الصفوف الأمامية لغزوة بدر الكبرى على مقربة منك يا صديق ، اختار ، { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }.. – البلد : ١٠ – إما صفوف الخير وإما صفوف الشر..

****

مما سبق أيضًا نجد أن الإقتراب كثيرًا ما يكون ناتجًا عن

الطمع ، هو الطمع بعينه ، الرغبة الشديدة التي اعترت آدم للحصول على شئ ما من الشجرة ، الإستحواذ عليه ، إشتهاؤه ، إنه الخلود !! لكن الذي حدث { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا } فكانت النتيجة { فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا

كَانَا فِيهِ }.. – البقرة : ٣٦ – من حالة السكون بالتأكيد !!..

****

إلا أن الطمع تفرّع بعد ذلك كفروع الشجرة المُحرّمة..

{ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) }..– المعارج : ٣٨ – ٤٤ –..

****

يعتري آدم إحساس ليس بالجيد ، لأول مرة يشعر به ، يكتشفه ، يغتم وجهه لأهله ، فقد كان إحساسًا لاذعًا ، مريرًا ، ربما فهم أن الشئ الذي يبحث عنه غير ملموس ، كالذي شعر به بالضبط ، ولأنّه تعلّم الأسماء كلّها ، فقد كان يعلم أنه الندم ، أولى خطوات التوبة ، سيُعلّمها حوّاء بكل تأكيد ، لكن بعد أن يجد الخطوة الثانية للتوبة ؛ ما يعقب الندم ، لابد وأن هناك ما يعقبه ، طالما هذا الذي يعتريه لا يذهب ولا يكاد يمل من تأنيبه..

لكنه كان يريد العودة ، فهل للعودة من سبيل ، ربما العودة هي عين الخطوة الثانية ، وربما ما يلي العودة ، إذا عاد إلى حالة السكون مرة أخرى ، فربما لا يفكر وقتها في الإقتراب أو الدنو من تلك الشجرة ، فهل للعودة من سبيل ؟؟!..

{ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

}..– البقرة : ٣٧ –..

{ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٦١)

}.. – الأعراف: ٢٦١ –

فتاب عليه ، إذًا هناك باب للعودة ، للرجوع إلى الحالة الطبيعية ، قلنا أن إبليس لا يمل أن يُغريك بالشجرة ، لكننا نسينا أن نقول أن هناك بابًا للعودة إلى حالتك الأصلية ، للتناغم مع الكون وحالته ، بابًا إسمه التوبة ، مُخصّص لخليفة الله في الأرض..

(١٠)

الخُلاصة..

{ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) }..– الضحى : ١١ –

يقول قتادة أنها نعمة النبوة..أن الرسول الكريم – سيد ولد آدم – كرّمه الله وأنعم عليه بالنبوة ، بهذا التكليف الشاق ، الذي كلما زادت مشقته كلما زاد الأجر والثواب ، ألذلك غفر الله له ما تقدم من ذنبه ؟! ، أم تكون المغفرة هي النعمة وشُكْر النبي – صلى الله عليه وسلم – هو الحديث بهذه النعمة..

ربما..

نعمة النبوة التي شرّفنا الله بها ، أن نكون تحت لوائها ، أن نشهد أن لا إله

غيره ، ونصدق بكل الرسل وبكل الكتب السماوية ، أن نكون متدينين (بطبعنا) لأن إسلامنا قد نُلناه شرفًا جدًا عن جد ، أتكون هذه هي النعمة التي نفخر بها كل الفخر ، وتكاد السماوات تتفطّر جرّاء تيهنا وفخرنا بهذه النعمة التي شبعنا من الحديث عنها ، لكننا لم ننظر إلى الوجه الآخر منها ، وهو وجه التكليف..

هل تكون هي النبوة ..؟!

أم شيئًا أكبر أرسل الله – من أجله – نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – وبقية الأنبياء – صلوات ربي وسلامه عليهم – ..

شيئًا هو الأصل ، الجذر ، النبتة الأصلية التي غُرست في نفوسنا وتجلّت في فطرة أغمسناها في ظل الشجرة المذكورة ووحل الخبث ومكر الحياة الدنيا ، وهو شر مكر.. النبتة التي نفخ فيها الرب الأعلى من روحه ، وسقاها آدم بتجربته التي سردناها ، حتى لا ننسى أبينا الأول وخطيئته التي أودت

بنا إلى هذه الأرض..دائمًا ما نلومه على أننا كنا السكان الأصليين للجنة وبسبب فعلته هبطنا إلى أسفل ، أوليس الأوْلى أن نؤنب أنفسنا على أننا رغم معرفتنا لباب العودة لم نستطع الصعود مرة أخرى إلى – موطننا الأصلي – إن كان هو الأصلي بصدق..

ورغم كل هذا ، هل عرفتم تلك النعمة..؟!

هل هي نعمة المال ، التي ما عادت هذه الآية تُذكر في الآفاق – إن ذُكِرت في جو غير جو المآتم – حتى يُذكر معها المال ، وكأن أنعم الله اقتصرت على المال وإغداقه على العامة ، ونسي العالم أن هناك نعمًا غير تلك لا تُحصى ولا تُعد ، ولكن حقوق نشرها أصبحت للطبيعة – بعدما راجت بضاعة الإلحاد حتى في نفوسنا (المتدينة بالفطرة)..

الماديات أغرقتنا حتى كاد الهلاك أن يكون وشيكًا ، والإقتراب الطامع أن يكون هو القاعدة الصلبة ، إلا أن هناك ما تبقّى من سفينة نوح نتمسك به

، من روحِ الخشب وقلب الطوفان ، حيث الغرق ولا شئ بعده سوى الندم ، حيث لا يعصمك من الله شئ إلا تلك النعمة التي تُحدّث بها العالم..

نعمة ميّز الله بها الإنسان عن الحيوان ، الجماد ، البحار والأنهار ، ليس العقل كما كنت تفكر ، العقل ماهو إلا آداة للتفكير في هذه النعمة ، التوجيه الصحيح لها ، التأمل السليم في الكون وأنعمه العديدة ، التي ما سُخّرت سوى لكوْن هذه النعمة هي ما خلِقت لأجله..

اقتربت صدّقني ، إن كنت كما موسى – عليه السلام – تركت البحر رهوًا فلا يزال أمامك الطريق ضبابيًا ، وعليك أن تصعد جبل المعرفة لتقف على حافة الأدب ، ولا تقف على حافة الشاطئ لتتحسّر على مُلك فرعون الذي أفلتّه من يدك ، فما لهذا خُلِقت ، خُلِقت لنعمة أكبر..

اقتربت أكثر ، وأنت ترى بعين القرآن المسيح – عليه السلام – ، يرفعه الله إليه ، أو حتى كنت ترى – وقتها – مَن على الصليب شخصًا يُشبِه

المسيح ، فعليك أن تؤمن أن المسيح سيعود ، وعليك أن تشعر بمعاناة الشخص الذي صُلِب ، لأنه إنسان في النهاية ، ولأنك من الممكن أن تكون مثله ، أو بالأحرى فلتتخيل نفسك مثله ، فأنت الآن على صليب الحياة الدنيا ، وجلّادها فوق رأسك ، وما الذي سيُنقِذُك سوى إيمانك بأنك عبدٌ لله ، وأنه خلقك لتُحدّث بتلك النعمة..

النعمة هي أنت..

أنت خليفة الله في الأرض ، خلقك لتعمّر ، لتترك الدنيا وهي أفضل مما كانت عليه يوم ولادتك..

أنت المعجزة ، لم يكن هناك معجزة يوم ولادته – صلى الله عليه وسلم – وإنما أنت أنت المعجزة ، المعجزة التي تركها للعالم لكي تُكمِل مسيرة الأنبياء ، خليفة الله في الأرض ، هذا ما يجب أن تُحدّث به ، تملأ الكون ضجيجًا بأنك الخليفة ، وأن الكون مسؤليتك ، وأن الكون ما تحويه نفسك

من سكون ، من جماد إلى حيوان إلى إنسان مثلك ، أنت مسؤول أن تجعله أفضل ، حتى ولو بإبتسامة ، ليس هذا أضعف الإيمان ، لكن ألا تعرف نفسك هذا هو أشد الضعف الذي يستخدمه الشيطان في الإيقاع بك ، أن تكون أنت أنت الخاسر حتى قبل أن تبدأ المعركة ، عندما لا تعرف أنك الخليفة ، أو تنسى لوهلة أنك الخليفة ، هذه هي النعمة التي من أجلها خُلِقت ، ومن أجلها تموت ، ولأجلها تعيش ، ويكون كل تفكيرك هي تلك المهمة ، التي لا تكون إلا نعمة عندما تعرفها ، ولا تكون إلا عدم عندما لا تعلم عنها شيئًا ، لأنك ستكون وقتها أنت والقرد واحد ، سيُطبّق عليك بكل تأكيد نظرية دارون – حتى وإن كانت نظرية خاطئة – ، ستجعل من نفسك تطبيقًا لنظرية !! ، كل هذا لأنك لم تفكّر أنك الخليفة ، وأن مسؤولية إعمار الأرض عليك أنت ، ليس وحدك ، وإنما بنفسك ، ووقتها ، وقتها فقط ، عندما تتملّك فكرك هذه النعمة ، تسلب قلبك ولُبّك ،

تسير في هذه الحياة لتجعلها أفضل ، وقتها ووقتها فقط ، سيدهشك أن لسانك ينطق وحده ، ويُحدّث العالم عن هذه النعمة ، سواء هنا في الدنيا ، أو على منصة الحساب ، يوم الحساب..

(١١)

صديقي ، انظر في المرآة ، ستجد عاصيًا ، صدقني ، لن تسلم من الخطأ بأي حال من الأحوال ، لن تسلم من التفكير في الإقتراب من الشجرة التي نُهيت عنها ، سترى نفسك ساديًا ، ربما أقسو عليك ، لكنك بالفعل كذلك ، تعشق تعذيب نفسك ، تعشق لعب دور الضحية ، وأنك الخاسر في لعبة الحياة دائمًا ، لكنك لا تتخيل نفسك وأنت في النار ، ترجو رحمة ربك ، ولا تدري ، على أي شط سترسو سفينتك ، بل قطعة الخشب التي تجوب بها المحيط وحدك ، أنت الخاسر دائمًا إذا كنت الضحية أو حتى أتقنت لعبها على شاشة مرآتك ، على مرأى ومسمع منك ، أنت وحدك ستكون الخاسر..

صديقي ، انظر في المرآة ، لن ترى سوى شبحًا هزمته الأيام الموحِشة ، تلك الأيام التي سلبتك فطرتك ، بإرادتك ، سلبتك إنسانيتك ، وأنت

سعيد بهذا الدور ، دور الضحية ، يسعدك أنك لم تفعل شيئًا ، كنت دائمًا المجني عليه ، صدقني ، تكمن المشكلة كلها ، في أنك لم تفعل شيئًا ، عندما تقف أمام ربك ، هل ستكون بكامل فخرك وعزتك وأنت تقول..كنت ضحية ، لم أفعل شيئًا.. هل خلقك ربك لكي لا تفعل شيئًا..!

صديقي ، انظر في المرآة ، انظر بداخلك بشدة ، لا تعرض عن نفسك فجأة إذا رأيت عيبًا ، أو خدشًا ، جرحًا ، تركته الأيام بفعل إستسلامك ، ربما كان هذا في الماضي ، لكن ما ذنب المستقبل الذي ينتظر الخليفة القادم ، خليفة الله في الأرض ، صديقي ، نعم أنت ، نعم من تنظر له في المرآة ، هو خليفة الله في الأرض..

ربما أخطأت ، ربما نجوت من كونك عاصيًا ولم يمسّك الله بسوء ، لا تفرح كثيرا لربما كان العقاب في الآخرة ، لكن ، إلى هذه اللحظة ، لا زالت هناك فرصة ، لا تقولها أرجوك ، كلنا نخطئ ، لكن قليلاً منّا من يُصيب..

قم من فورك ، واملك زمام أمرك ، ستخطئ ، ربما ، سيحاولون إبعادك عن طريقك السوي ، بدعوى أنك لا تصلح ، بدعوى أنك مذنب ، من منّا لا يُذنب ؟! قلها لنفسك ، طريق الإصلاح لا يمشي فيه الأنقياء فقط ؟!! ، إن كان هناك من أنقياء أصلًا !! طريق الحق لا يمشي فيه سوى البشر ، العصمة دفنت يوم دفن النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وأنت وغيرك لستم بمعصومين ، انصح ولا تتحكم في أحد ، انصح لله ولرسوله ، ولعامة المسلمين النصح ، ولعامة الإنسانية الإبتسامة والإرشاد ، حتى وإن كنت لست أهلًا لذلك !! لا تدعهم يخدعونك بأنك لست أهلًا له ، فأنت خليفة الله في الأرض ، تُخطئ ، نعم ، لكنك تعود ، لأنك تعرف أنك على الطريق الصحيح ، لأنك تعرف من أنت..

صديقي ، انظر في المرآة ، وقلها بفخر ، أنا خليفة الله في أرضه..

(١٢)

وطبقًا لعمليات البحث الأخيرة ، حيث أنك الأخير في كل شئ ، على مستوى النظافة لست الأفضل ، على مستوى التعليم لست الأفضل ، على مستوى الأفضلية لست الأفضل..

هذا سبب أدعى لأن تتذمر ، أن تخرق السفينة بدون دافع ، أن تقتل الطفل بدون سابق معرفة ، أن تهدم الجدار لأنك لست الأجدر ببناؤه ، التذمر لم يكفي سابقًا ، ربما تذمرك أنت هو الحل ، ربما جلوسك في كهف مظلم وسب كل شئ من دبيب النملة إلى صورة المجرات الهائلة هو الحل ، ربما الإنبهار بشئ من اللاوعي بما تراه من صناعات مدهشة وأفكار جلية بالنظر إليها هو الحل ، ربما ، اقطب جبينك جيدًا واحكم عليه بالدوام ، افعل ما بوسعك لكي تغضب ، اضرب الحائط عدة لكمات ، ربما لو أنك ضربته برأسك كان أفضل ، استخرج ما في باطن عقلك من تذمر وغضب

إلى أقصى طاقة ، هل تغيّر شئ ؟؟!..

بعد السب المتبادل بينك وبين أصحاب الطائفة الأخرى ، أو الديانة الأخرى ، وبعد التقليد الأعمى لكل ما هو مُبهِر ، وبعد أن عبدت إله الإستهلاك ، بعد أن مضيت في الحياة الدنيا وتعلمت على قدر ليس بالقليل أن الدنيا لا تُعطِي من تُمثّل له أخلاقه كل شئ ، أن حياة الدنيا هي الأفضل بلا شك ، وأن الشهادتين بنطقهما والصلاة بآدائها والسعي إلى إنهائها هو الحل الأسلم لدخول الجنة ، وكأن الدين لم يتمثّل إلا في كلمة وفعل ، بعد كل هذا ، ما رأيك..هل تغيّر شئ للأفضل ؟؟!..

هل لك في أمر شديد الوضوح ، هل لك في غاية هي أسمى الغايات وصراط مستقيم لا يؤدي إلّا إلى الغاية المُثلى ، هل لك في الأمر من شئ ، هل لك في السكون ..؟

لماذا لا تفعلها ، لماذا لا تترك كل ما قد يؤرقك ، أو تحاول تغييره للأفضل ،

هل في الأمر من صعوبة؟! ربما ، لكن من قال لك أنك خُلِقت لتتمتّع بالشئ السهل وتعيش ملكًا مُرفّهًا وكأن الأمر لا يعنيك ، انظر في المرآة مرة أخرى ، الأمر يكاد يفتك بك ، يأكل منك كل يوم قطعة ، يأخذ منك كل يوم شيئًا عزيزًا عليك ، وللأسف لا تترك مكانه أي شئ يدل على أثرك..

وطبقًا لعمليات البحث الأخيرة ، ربما تكون الأسوء ، لكن ، هل لك في أمر فيه كل الخير؟! انقذ غيرك من أن يكون أسوء منك.. وللمعلومات ، لن يكون هذا بكلمة وفعل ، بل بفهم الكلمة والتأثير الإيجابي للفعل ، وقتها وطبقًا لسنن الله في الكون ، ربما تكون الأفضل ، ليس هنا بالتأكيد ، لكن دعنا نذكرك بكل خير ، أنك مررت من هنا ، وزرعت في النفوس الخير ، دعنا نقول ، كان هنا خليفة الله..

{ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) }..– البقرة : ٣٨ –

****

تمّ بحمد الله